

سُورَةُ النَّصْرِ

حِينَ يَكْتَمِلُ الْفَتْحُ
وَيَنْحَنِي الْمُنْتَصِرُ
تَسْبِيحًا وَاسْتِغْفَارًا

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ النَّصْرِ

حِينَ يَكْتُمِلُ الْفَتْحُ وَيَنْحِي الْمُنْتَصِرُ تَسْبِيحًا
وَاسْتِغْفَارًا

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

السورة التي لم تجعل النصر خاتمة الطريق، بل جعلته بداية الرجوع

إلى الله

ثلاث آيات فحسب، ولكنها تفتح في الوعي القرآني أفقاً لا تكاد تحيط به المجلدات؛ لأنها لا تتحدث عن النصر بوصفه واقعةً سياسيةً عابرة، ولا عن الفتح بوصفه انتقال مدينة من سلطان إلى سلطان، وإنما تكشف عن المعنى الإيماني العميق للحظة التي تبلغ فيها الرسالة ذروة ظهورها، ويقف فيها الإنسان على القمة التي طالما صعد إليها عبر الألم والصبر والمقاومة، ثم يسمع النداء الإلهي لا يأمره بأن يرفع راية ذاته، ولا أن يكتب اسمه على أبواب التاريخ، ولا أن يستخرج من النصر شهادةً بعظمته الشخصية، بل أن ينحني لله تسيحاً وحمداً واستغفاراً؛ كأنّ القرآن يريد أن يقول: إن أصعب الامتحانات ليست دائماً ساعة الهزيمة، فقد يحفظ الإنسان قلبه وهو مطاردٌ ضعيف، ثم يفقده حين يصبح غالباً قوياً، وقد يثبت في العراء حين لا يملك شيئاً، ثم تزلّ قدمه حين تفتح له الأبواب، وتوسع له الأرض، وتتجه إليه الوجوه.

وسورة النصر من أقصر سور القرآن مبنى، ومن أوسعها دلالةً على فلسفة الإنجاز في التصور الإيماني؛ فهي تعيد النصر إلى مصدره قبل أن تسمح للمنتصر بأن ينظر إلى آثاره، وتسمي الفتح فتحاً من الله قبل أن يكون فعلاً من أفعال البشر، وتجعل دخول الناس في الدين ثمرةً لظهور الحق لا مناسبةً لتضخم الداعية، ثم تفاجئ القلب في نهاية المشهد بأمرٍ عجيب: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾؛ فلا صخب، ولا زهو، ولا ثمالة انتصار، وإنما تسبيحٌ ينزه الله عن الشريك في الإنجاز، وحمدٌ يعترف له بالفضل، واستغفارٌ يطهر القلب من خفايا العجب، ويهيئ الروح للوقوف بين يديه.

وسنمضي في تدبر هذه السورة من داخل نظمها القرآني، فنبداً بدلالات ألفاظها وسياقها، ثم ننظر في الروابط الدقيقة بين النصر والفتح، وبين الفتح ودخول الناس، وبين اكتمال الرسالة والاستغفار، من غير أن نحمل الآيات ما لا تحتمل، ولا أن نفصل التأمل عن أصل المعنى الذي دل عليه اللفظ والسياق. والمراد بالفتح في أقرب سياق السورة فتح مكة وما ترتب عليه من إقبال قبائل العرب على الإسلام، غير أن القرآن حين يصوغ الحدث بهذه الصورة الخالدة لا يحبس في زمنه؛ بل يجعله قانوناً تربي به الأمة، ويهذب به كل صاحب رسالة، ويتعلم منه كل إنسان بلغ غايةً أو حقق نجاحاً أو رأى ثمرة سعيه بعد طول انتظار.

إنها سورة لا تعلمنا كيف يأتي النصر فحسب، بل تعلمنا كيف ننجو من النصر حين يأتي؛ ولا تصف لنا دخول الناس في دين الله فقط، بل تحرس قلب الداعية من أن يتوهم أنهم دخلوا في دينه هو؛ ولا تعلن اكتمال المهمة النبوية وحده، بل تفتح وراء اكتمالها نافذة اللقاء، فكأن الفتح الكبير في ظاهر السورة يخفي وراءه فتحاً أعظم: أن تُختتم الحياة وقد أدى الإنسان رسالته، ثم يعود إلى ربه مسبّحاً حامداً مستغفراً، لا يحمل من الدنيا إلا صدق العبودية، ولا ينسب إلى نفسه شيئاً مما أجراه الله على يديه.

الفصل الأول

سُورَةُ اخْتِمَامٍ: حِينَ يَصِيرُ اكْتِمَالُ الرِّسَالَةِ إِشَارَةً إِلَى اقْتِرَابِ اللَّقَاءِ

ليست سورة النصر مجرد بشارة بانتصار الإسلام، بل هي من وجهٍ آخر إشعارٌ رقيق بأن الرسالة قد بلغت تمامها، وأن المهمة التي عاش لها النبي ﷺ قد قاربت اكتمالها، وأن كثافة النور المنتشر في الأرض تحمل في طياتها معنى اقتراب الرحيل؛ ولهذا فهم ابن عباس رضي الله عنهما من السورة ما لم يقف عند ظاهرها بعض من سمعها: رأى فيها نعي رسول الله ﷺ إلى نفسه، لأن مجيء النصر، ووقوع الفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، تعني أن الغاية الكبرى من البعثة قد تحققت، وإذا اكتملت الوظيفة العظيمة تهيأت الروح العظيمة للعودة إلى بارئها.

وهذا من أرقِّ طرائق القرآن في الإنباء عن انقضاء العمر؛ فلم يقل للنبي ﷺ إن أيامك قد انتهت، ولم يضعه أمام الرحيل مجرداً من ثمرة الطريق، بل أراه الرسالة وقد خرجت من طور الاستضعاف إلى الظهور، ومن دائرة الأفراد القلائل إلى أفواج الناس، ومن مكة التي أخرجته إلى مكة التي فتحت

له أبوابها؛ ثم أشار إليه أن وراء هذا الاكتمال لقاءً قريباً. فكأنَّ الله سبحانه لم يشأ أن يكون الرحيل قبل أن تقرر عين نبيه بظهور الدين الذي حمل من أجله أُنْقَالَ التَّكْذِيبِ والحِصَارِ والهجرة والجراح، ولم يشأ أن يرى ثمرة الدعوة من بعيد، بل أراه الناس الذين كانوا بالأمس يقاومون الرسالة يدخلون اليوم في دين الله أفواجاً.

إنها سورة الفرح الذي يمر عبر القلب هادئاً؛ لأن وراءه شجن الوداع، وسورة الإنجاز الذي يلمع في الأرض بينما تستعد الروح للصعود، وسورة اكتمال البناء حين يعلم الباني أن مهمته لم تكن أن يسكن البناء لنفسه، بل أن يرفعه للناس ثم يمضي إلى ربه. وفي هذا المعنى عزاء لكل صاحب رسالة صادقة: ليست قيمة الحياة في طول المكث فوق الأرض، وإنما في أن يؤدي الإنسان ما استودع، وأن يترك بعده من الحق ما يواصل السير وإن توقفت خطواته، ومن النور ما يبقى مضيئاً وإن غاب حامله.

وقد عاش النبي ﷺ قبل هذه السورة رحلةً لا تشبهها رحلة: بدأ منفرداً إلا من قليل، وحمل كلمةً بدت في أعين المتجبرين أضعف من أن تغير مكة، ثم خرج منها مهاجراً وقد اجتمعت عليه القبائل، وعاد إليها فاتحاً من غير أن يدخلها دخول المنتقم لنفسه، بل دخول العبد الذي طأطأ رأسه لله حتى كادت لحيته تمس رحله. وهنا تلتقي السيرة بالسورة: فالفتح في التصور النبوي

ليس منصّةً ينتصب فوقها المنتصر متعالياً، بل محراباً يخفض فيه رأسه، وليس ساعة انتقام من الماضي، بل ساعة شكر على هداية الحاضر.

من أجل ذلك كانت سورة النصر خاتمةً تربويةً تليق بخاتمة الرسالة؛ فقد صنعت من لحظة النصر لحظة عبادة، ومن ذروة الظهور بداية استغفار، ومن إقبال الناس سبباً لمزيد من التواضع. إنها تقول لكل من حمل حقاً ثم نصره الله: احذر أن تفسد في لحظة الوصول ما بنيته في سنوات الطريق، ولا تجعل ظهور الرسالة حجاباً بينك وبين منزلها، ولا تنتقل من عبادة الله في حال الضعف إلى عبادة ذاتك في حال القوة؛ فإن الذي نصرك حين لم تكن تملك شيئاً قادراً على أن يسلب منك أثر النصر حين تظن أنك ملكت كل شيء..

الفصل الثاني

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

تبدأ السورة بـ﴿إِذَا﴾، وهي أداة تفتح نافذة المستقبل على حدث متحقق الوقوع، فلا تقول الآية: إن جاء النصر، على معنى الاحتمال المتردد، بل تقول: ﴿إِذَا جَاءَ﴾، وكأن النصر قادمٌ في موعده الذي يعلمه الله، يسير في طريق لا تراه العيون المستعجلة، ولكن الوعد الإلهي يراه حقيقةً قبل أن يتجسد في الواقع. وهنا يتعلم المؤمن أن تأخر النصر لا يعني غيابه، وأن بطء ظهوره في حساب البشر لا يدل على اضطراب مجيئه في تقدير الله، فما كان آتياً بوعد الله لا تمنعه كثرة العوائق، وإنما يأتي حين تستكمل الحكمة شروطه، وتنضج النفوس لاستقباله، ويصبح النصر نفسه رحمةً لا فتنه.

ولم تقل الآية: إذا انتصرت، ولا إذا فتحت، وإنما قالت: ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾، فنسبت النصر إلى الله قبل أن تذكر الفتح، لتقطع الطريق على الوهم الذي يتسلل إلى الإنسان بعد النجاح، فيتوهم أن حسن تديره استقل بصناعة النتيجة، أو أن قوته هي التي أنشأت التحول، أو أن ذكاه الشخصي هو الذي أخضع الواقع. ولا يلغي هذا إسهام الإنسان ولا قيمة الجهد والأخذ

بالأسباب؛ فقد هاجر النبي ﷺ، وخطط، وأعد، وقاد، وصابر، ولكن السورة تنقل البصر من الوسائل إلى مسببها، ومن الأيدي التي حملت الرايات إلى الإرادة التي وهبت الأيدي قدرتها، وفتحت للأسباب أبواب الفاعلية.

إن النصر يُصنع في الأرض بالأسباب، لكنه لا يولد من الأسباب وحدها؛ فقد تتوافر الوسائل وتغيب البركة، وقد تكثر الجموع ويأتي الانكسار، وقد يقل العدد ويهبط التأيد، ولذلك أضافه القرآن إلى الله: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾. وهذه الإضافة تربي قلب المنتصر قبل أن تنظم فهمه للتاريخ؛ فمن علم أن النصر لله لم يستعبد الناس بعد انتصاره، ولم ير نفسه رباً لنتائج الطريق، ولم يحول الشكر إلى مديح لذاته، بل رأى نفسه أداةً اصطفاها الله لقدرٍ من أقداره، فإن استقامت بقيت نافعة، وإن انحرفت استبدل الله بها غيرها.

والنصر غير الفتح وإن كنا متلازمين؛ فالنصر تأييدٌ يدفع الموانع ويكسر المقاومة ويقوّي أهل الحق، أما الفتح فهو انكشاف الأبواب بعد انغلاقها، واتساع الطريق بعد ضيقه، ودخول الدعوة إلى المجال الذي كان محجوباً عنها. قد يبدأ النصر خفياً في ثبات قلبٍ واحد لا تزعزعه المحنة، ثم يظهر في انكسار سلطان الباطل، حتى يبلغ صورته الواسعة في الفتح. والنصر بهذا المعنى لا يبدأ يوم سقوط الحصون، بل يوم يعجز الخوف عن إسقاط اليقين، ولا يولد ساعة

يدخل الجيش المدينة، بل ساعة تدخل الحقيقة قلب حاملها دخولاً لا يترك للهزيمة منفذاً إليه.

أما ﴿الْفَتْحُ﴾ فأقرب ما يراد به هنا فتح مكة؛ ذلك الحدث الذي لم يكن فتح مدينة فحسب، بل فتحاً للوعي العربي الذي ظل يرقب الصراع بين قريش ومحمد ﷺ، فلها سقط الحاجز الأكبر، وانكشفت قوة الحق، توالى الوفود ودخل الناس في الإسلام جماعات. غير أن لفظ الفتح أوسع إيحاءً من مجرد الغلبة العسكرية؛ فالفتح قد يكون فتح الأرض، وقد يكون فتح القلوب، وقد يكون فتح الطريق أمام حقيقة حجبها رهبة القوة والعادة والمصلحة. وأعظم الفتح أن يفتح الإنسان للحق بعد أن أغلق دونه منافذ نفسه، وأن يتحرر من سلطان الموروث المتحجر، وأن يرى ما كان كبرياؤه يمنعه من رؤيته.

وفي قوله: ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ تصويرٌ للنصر كأنه قادمٌ من عند الله، له أجلٌ يسير إليه، وموعدٌ لا يتقدمه ولا يتأخر عنه. إنه لا ينتزع من خزائن الغيب بالاستعجال، ولا يُستدعى بالصخب، وإنما يُستقبل بالعمل والصبر والاستقامة. وقد يظن أصحاب الرسالات أن النصر تأخر، بينما تكون الحكمة الإلهية في تلك اللحظة منهمكةً في صناعة القلوب التي تستطيع أن تحمله؛ لأن النصر إذا جاء قبل اكتمال التربية قد يهزم أصحابه من الداخل، فيمنحهم

سلطاناً على الأرض قبل أن يمنحهم سلطاناً على شهواتهم، فتتحول الراية التي رفعت باسم الحق إلى ستارٍ لأهواء النفس.

ولهذا لا تكون كل غلبةٍ نصرًا، ولا كل توسعٍ فتحًا؛ فقد يغلب الإنسان وهو مهزومٌ أمام نفسه، وقد يفتح البلدان وتغلق روحه عن الرحمة والعدل، وقد ترتفع رايته ويسقط معناه. أما نصر الله فتظهر علامته في أن يبقى المنتصر عبداً بعد أن صار قادراً، وأن يزداد تواضعاً كلما ازداد ظهوراً، وأن يكون الفتح توسعةً للحق لا توسعةً للذات.

الفصل الثالث

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾

لم تقل الآية: ورأيت الناس قد دخلوا، بل قالت: ﴿يَدْخُلُونَ﴾، فجاء الفعل مضارعاً يرسم الحركة وهي تقع، حتى كأن العين ترى الجماعات تتابع، والقلوب تنتقل من ضفة إلى ضفة، والدعوة التي حملها أفراد مستخفون بها تصبح مقصداً للوفود. إنها صورة حية لا تسجل نتيجة جامدة، بل تعرض تياراً بشرياً متدفقاً، موجةً بعد موجة، وفوجاً إثر فوج، حتى يبدو التاريخ نفسه كأنه يتحرك نحو الباب الذي فتحه الله.

وفي قوله: ﴿وَرَأَيْتَ﴾ تكريمٌ لقلب النبي ﷺ، فقد أراه الله بعينه ثمرة ما زرعه بالإيمان والصبر، وأراه الوجوه التي كانت بعيدةً تقترب، والقبائل التي كانت مترددةً تحسم موقفها، والجزيرة التي كانت ممزقةً بين الأوثان والعصبيات تلتقي على كلمة التوحيد. بعد أعوامٍ من التكذيب رأى التصديق، وبعد أن كان يؤذى ليرك الناس سمعهم مغلقاً عن القرآن، رأى الناس يأتون بأنفسهم طالبين الدخول في الدين. وما أرحم الله حين يري عبده ثمرة الصبر

بعد طول الطريق، لا ليقول له: أنت صنعتها، بل ليقر عينه بأن شيئاً من الألم الصادق لم يضع.

لكن الآية قالت: ﴿النَّاسَ﴾، ولم تقل: أتباعك أو أنصارك، لأن الرسالة لا تملك البشر، والداعية الصادق لا يضم الناس إلى ذاته، وإنما يدلهم على ربهم. وكل مشروع يجعل الولاء لشخصه غايةً، ويستبدل مركبة الله بمركبة القائد، قد أخذ من صورة الدين وترك جوهره؛ فالأنبياء لا يصنعون لأنفسهم جماهير، بل يحررون الناس من العبودية لكل ما سوى الله.

ثم جاء التعبير الحاسم: ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾. لم يقل: في دينك، مع أن النبي ﷺ هو المبلّغ والمعلم والقائد، لأن الدين لله وحده، والوحي وحيه، والعبادة له، والقلوب ملكه، والرسول نفسه عبدٌ مصطفى يؤدي الأمانة. وفي هذه الإضافة حماية للدين من أن يتحول إلى ملكية بشرية، وحماية للداعية من أن يختلط بين انتصار الحق وانتصار شخصه، وحماية للناس من أن يستعمل إيمانهم مادةً في بناء مجد فردي.

إنهم يدخلون في ﴿دِينِ اللَّهِ﴾ لا في حظيرة جماعة مغلقة، ولا في سلطان طبقة تحتكر الله، ولا في علاقة إذعانٍ لشخصٍ يتصرف في ضمائرهم؛ يدخلون في العبودية التي تحررهم من العبوديات، وفي النظام الذي يعيد الإنسان إلى فطرته، وفي الصلة التي تجعل القلب لله فلا يملكه طاغية ولا كاهن ولا شهوة.

ولذلك كان الفتح الحقيقي فتحاً للإنسان من داخله: تحرير عقله من الوثن، وضميره من الخوف، وإرادته من الهوى، وكرامته من الانحناء لغير خالقه.

أما ﴿أَفْوَاجًا﴾ فهي الكلمة التي تحتزن انقلاب المشهد كله؛ فقد بدأ الإسلام بأفرادٍ يدخلون واحداً واحداً، يخفون إيمانهم، ويتحملون من أجله العزلة والعذاب، ثم صار الناس يدخلون جماعاتٍ بعدما زال الحاجز الذي كان يحول بينهم وبين سماع الحق في مناخ حر. غير أن دخول الأفواج يحمل تكليفاً جديداً؛ فالمرحلة التي يدخل فيها الأفراد الصلبون تحت ضغط المحنة ليست كالمرحلة التي تدخل فيها الجماهير بعد ظهور الدين، إذ تحتاج الأفواج إلى تعليمٍ وتربيةٍ وثبيت، وقد تحمل معها بقايا الجاهلية والعادة والمصلحة. ولذلك لا يجوز لصاحب الرسالة أن تخدعه الأعداد؛ فكثرة الداخلين توسّع مساحة الأمانة، ولا تعني بالضرورة اكتمال التربية.

والقرآن لا ينظر إلى الإنسان بوصفه رقماً يضاف إلى حشد، بل قلباً ينبغي أن يعرف ربه، وعقلاً ينبغي أن يبصر الحقيقة، وسلوكاً ينبغي أن يشهد لمعنى الدين. فإذا تحولت الأفواج إلى أرقام يتباهى بها القادة ضاع الإنسان داخل الكثرة، وأصبحت الجماهير وقوداً للمجد الشخصي. أما حين يُنظر إليهم باعتبارهم داخلين في دين الله، فإن كل واحد منهم أمانة، وكل روح عالمٌ

كامل، وكل قلب يحتاج إلى من يأخذه من الانتماء الظاهر إلى حقيقة العبودية.

وهكذا ترتب الآية المشهد ترتيباً بالغ الدقة: نصرٌ من الله، يعقبه فتح، يعقبه دخول الناس في دين الله. فليس المقصود من النصر استعراض القوة، وإنما إزالة الحواجز بين الناس والحق، وليس المقصود من الفتح امتلاك الأرض، وإنما فتح الطريق إلى القلوب، وليس المقصود من إقبال الناس تضخيم شأن الجماعة، وإنما أن يعود الخلق إلى خالقهم. وحين تنحرف حركة ما عن هذا الترتيب، فتجعل النصر لنفسها، والفتح لمصالحها، والناس أتباعاً لأشخاصها، فقد استعملت ألفاظ السورة وهدمت معناها.

الفصل الرابع

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾

هنا تقع المفاجأة الكبرى في السورة؛ فبعد النصر والفتح ودخول الناس أفواجا، كان المتوقع في منطق البشر أن يأتي الأمر بالاحتفال، أو تثبيت النفوذ، أو تعداد المنجزات، ولكن الجواب القرآني يأتي من جهة أخرى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾. كأن النصر حين يبلغ ذروته يصبح خطراً على صفاء التوحيد، فتأتي العبادة لتحرس القلب من نفسه، ويأتي التسبيح ليمحو من الوعي كل وهم يوحى بأن أحداً شارك الله في صنع النتيجة استقلالاً.

والتسبيح تنزيهٌ لله عن كل نقص، ومن جملة ما ينزه عنه سبحانه أن يتخلف وعده، أو يعجز عن نصرته أوليائه، أو تجري أقداره عبثاً بلا حكمة. فقد طال الطريق، وكثر الأذى، وربما تساءل البشر: متى نصر الله؟ ثم جاء النصر شاهداً على أن التأخير لم يكن إهمالاً، وأن الصمت الظاهر لم يكن غياباً، وأن اليد الإلهية كانت تدبر المشهد كله من وراء الحجب. فسبح ربك الذي لم يضع خطوةً مشيتها إليه، ولم ينس دمعاً سقطت في الطريق، ولم يترك الباطل وإن أمهله، ولم يخلف وعده وإن بدا للمستعجلين بعيداً.

ولكن التسييح جاء مقترناً بالحمد: ﴿يَمْحَدِ رَبِّكَ﴾، لأن التنزيه وحده إجلال، والحمد حبُّ واعتراف بالفضل. فليس الله سبحانه قادراً فحسب، بل محمودٌ في قدرته وتدييره وتوقيته؛ وليس النصر دليل القوة الإلهية وحدها، بل دليل الحكمة والرحمة كذلك. وقد حمى الله رسالته، وأقر عين نبيه، وفتح للناس باب الهداية، فكان الحمد هو اللغة التي ينبغي أن نتكلم بها الروح حين تعجز الكلمات عن استيعاب النعمة.

والباء في ﴿يَمْحَدِ رَبِّكَ﴾ تجمع التسييح بالحمد، حتى لا يكون التنزيه معنى ذهنياً بارداً، ولا يكون الحمد عاطفةً منفصلةً عن معرفة جلال الله؛ بل يسبحه المؤمن حامداً، ويمجده منزهاً، فيجتمع في قلبه التعظيم والمحبة، والهيبه والامتنان. ومن عرف الله بهذا الجمع لم ير النصر استحقاقاً شخصياً، بل فضلاً يستوجب الشكر، ولم يحوّل الإنجاز إلى حجةٍ على تفوق ذاته، بل إلى سببٍ جديد للانحناء بين يدي ربه.

ولم يقل: فسبح بحمد الله، بل قال: ﴿يَمْحَدِ رَبِّكَ﴾، فاختار اسم الربوبية الذي يستحضر رحلة التربية والرعاية والتدبير؛ فهو ربك الذي أنشأك، واصطفأك، ورباك بالوحي، وحفظك في الغار، ونصرك في مواطن الضعف، وردك إلى البلد الذي أخرجك قومه منه. وفي كلمة ﴿يَمْحَدِ رَبِّكَ﴾ يتجمع تاريخُ

كامل من العناية، حتى يبدو النصر آخر حلقةٍ ظاهرة في سلسلة طويلة من التربية الإلهية.

إن أعظم ما يفعله المسيح بعد النصر أنه يعيد حجم الإنسان إلى حقيقته؛ فلا ينكر جهده، ولكنه يمنعه من تأليه جهده، ولا يلغي دوره، ولكنه يحرره من الغرور بدوره. فالإنسان يعمل بكل طاقته، ثم يعلم أن الطاقة هبة، والعقل هبة، والفرصة هبة، والتوفيق هبة، والنتيجة هبة. وعندئذ لا يكون تواضعه تمثيلاً أخلاقياً، بل ثمرةً طبيعيةً لرؤية الحقيقة: لقد جرى الخير على يديه، لكنه لم يكن خالق اليد ولا القدرة ولا الظروف ولا الثمرة.

الفصل الخامس

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾

إذا كان التسييح بعد النصر مفهوماً بوصفه شكراً، فإن الاستغفار يبدو لأول وهلة أكثر إثارة للتأمل: لماذا يُؤمر النبي ﷺ بالاستغفار في لحظة اكتمال الرسالة؟ ولماذا تختم رحلة النصر باعتراف العبد بافتقاره، لا بإعلان كماله؟

إن الاستغفار هنا يبلغ ذروة معناه التعبدي؛ فهو ليس مجرد رجوع من خطيئة ظاهرة، بل إعلان دائم أن الإنسان، مهما بلغ في الطاعة، لا يستطيع أن يؤدي حق الله كما يليق بجلاله، وأن كل عمل بشري يظل محاطاً بحدود الضعف والنقص. وإذا كان هذا مقام سيد المرسلين ﷺ، فكيف بمن دونه؟ إن الطاعة نفسها تحتاج إلى استغفار: استغفار من تقصيرها، ومن غفلة القلب في أثنائها، ومن رؤية النفس لها، ومن توهم أن العبد قدم لله شيئاً يوازي نعمه.

والاستغفار بعد العمل من سنن العبودية؛ فالمؤمن يستغفر بعد الصلاة، ويستغفر الحاج عند إفاضته، ويستغفر أصحاب الأسفار بعد قيامهم، لأن العبادة

لا تُقدِّم إلى الله في ثوب الإعجاب، وإنما في ثوب الافتقار. وكلما ازداد العبد معرفةً بربه ازداد إحساساً بأن عمله دون مقام الشكر، وأن ما وفق إليه من الخير فضلٌ يحتاج إلى شكر، ثم إن الشكر نفسه توفيقٌ يحتاج إلى شكر آخر.

وفي لحظة النصر خصوصاً يصبح الاستغفار حارساً داخلياً من الأمراض التي تزدهر في مناخ القوة: العُجب، والكبر، ونسبة الفضل إلى النفس، والتشفي من الخصوم، وإساءة استعمال القدرة. إن المهزوم قد لا يستطيع أن يتكبر، أما المنتصر ففتتح أمام نفسه أبواباً واسعة للغرور؛ لذلك جاء الاستغفار في قلب الفتح، ليظل المنتصر يقظاً تجاه ضعفه الداخلي بعدما زال عدوه الخارجي.

وقد يحمل الاستغفار كذلك معنى الاستعداد للقاء الله؛ فالسورة تومئ إلى اكتمال الأجل والوظيفة، ومن أدب الرجوع أن يعود العبد نقي القلب، كثير الذكر، مستغفراً مما يعلمه ومما لا يعلمه. وكأن السورة تنقل النبي ﷺ من حركة البلاغ الواسعة بين الناس إلى خلوة التسبيح والاستغفار بين يدي ربه؛ فقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وجاهد في الله، وآن للقلب أن يتهيأ للرفيق الأعلى.

ولا يتعارض الأمر بالاستغفار مع مقام النبوة وعصمتها؛ فالاستغفار عبادةٌ في ذاته، ورفعةٌ في الدرجات، وتعليمٌ للأمة، وإظهارٌ لكمال العبودية.

والأنبياء أعرف الخلق بالله، ولذلك هم أشدهم شعوراً بجلال حقه، وأكثرهم افتقاراً إليه. وكلها علت منزلة العبد لم ير طاعته كبيرة، بل رأى نعمة الله عليه فيها أكبر، ولم يشعر أنه تجاوز مقام الاستغفار، بل أيقن أنه أحوج إليه؛ لأن المعرفة تكشف من دقائق التقصير ما لا تراه العيون الغافلة. والاستغفار هنا لا يصنع روحاً منكسرةً بمعنى العجز، بل يصنع قوةً مطهرةً من الغرور؛ فالذي يستغفر الله لا ينهار أمام خطئه، وإنما يرفض أن يقيم فيه، ولا يدعي العصمة لنفسه، لكنه لا يقنط من الإصلاح. وبذلك يحفظ الاستغفار النصر من التحول إلى طغيان، ويحفظ الجماعة من تقديس تاريخها، ويحفظ القائد من أن يرى نفسه فوق المراجعة، ويحفظ الأمة من أن تعتبر غلبتها شهادةً أبديةً بصواب كل ما تفعله.

الفصل السادس

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

لا تنتهي السورة بالاستغفار وحده، حتى لا يبقى القلب واقفاً عند شعوره بالنقص، بل تفتح له باب الرجاء: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. فالله الذي أمرك أن تستغفره لم يأمرك ليردك، بل لتعود إليه فيقبلك، ولم يكشف لك افتقارك ليحطملك، بل ليحررك من وهم الاستغناء، ويقودك إلى سعة رحمته.

وصيغة ﴿تَوَّابًا﴾ تدل على كثرة قبول التوبة وتكرره؛ فكما عاد العبد صادقاً وجد الباب مفتوحاً، وكما انكسر بين يدي ربه وجد الرحمة أوسع من انكساره. وليس في حياة الإنسان مرحلة يستغني فيها عن هذا الباب؛ فالضعيف يحتاج إلى التوبة من يأسه، والقوي من غروره، والمهزوم من سوء ظنه، والمنتصر من إعجابه بنفسه، والعابد من رؤيته لعبادته، والعالم من اغتراره بعلومه، وصاحب الرسالة من توهم أن الرسالة قامت به لا بفضل الله.

وجاء التعبير بـ ﴿كَانَ تَوَّابًا﴾ لا ليدل على زمن مضى وانقضى، تعالى الله عن ذلك، بل ليدل على ثبوت هذه الصفة ودوامها؛ فهو سبحانه لم يزل قابلاً لتوبة عباده، رحيمًا يرجوعهم، فاتحاً أبواب القرب لمن أقبل عليه. وكان

ختام السورة يربط أولها بآخرها: فالذي جاء منه النصر هو الذي تأتي منه المغفرة، والذي فتح للناس باب الدين هو الذي يفتح لعبده باب التوبة، والذي أتم نعمته في الخارج يريد أن يتم تطهير القلب في الداخل.

إن الفتح الخارجي وحده لا يكفي؛ فقد تُفتح المدن ويبقى القلب مغلقاً، وقد يدخل الناس في الدين وتظل النفس خارج حقيقة العبودية، ولهذا ختمت السورة بـ ﴿تَوَابًا﴾. فالتوبة هي الفتح الداخلي الدائم، وهي الهجرة التي لا تنتهي من النفس إلى الله، ومن الغرور إلى الافتقار، ومن رؤية العمل إلى رؤية الفضل، ومن التعلق بالثمرة إلى التعلق برب الثمرة.

الفصل السابع

فَلَسَفَةُ النَّصْرِ فِي السُّورَةِ: كَيْفَ يَنْجُو الْإِنْسَانُ مِنْ

فِتْنَةِ النَّجَاحِ؟

تضع سورة النصر ميزاناً دقيقاً يمكن أن توزن به انتصارات الأفراد والجماعات والأمم: فالنصر الصحيح هو الذي يزيد الإنسان عبوديةً، والفتح المبارك هو الذي يفتح للناس طريق الحق، والنجاح الصادق هو الذي يدفع صاحبه إلى الحمد والمراجعة، لا إلى الاستعلاء واحتقار الآخرين. فإذا أورث الإنجاز صاحبه كبراً، فقد يكون قد ربح النتيجة وخسر نفسه؛ وإذا جعله أكثر رحمةً وإنصافاً وتواضعاً، فقد ظهرت عليه بركة النصر.

لقد عرف التاريخ كثيراً من المنتصرين الذين هزمتهم انتصاراتهم؛ لأنهم نجوا من سيوف خصومهم ولم ينجوا من شهوات نفوسهم، وامتلكوا الأرض ولم يمتلكوا قدرتهم على العدل، وخرجوا من المعركة أقوىاء في الظاهر، منهارين في الباطن. أما محمد ﷺ فقد دخل مكة مطأطئ الرأس، وغلب من آذوه فلم يجعل الغلبة ثأراً لذاته، وتمكن فلم يتجرد من الرحمة، فكان تواضعه في الفتح أعظم شاهد على أن النصر لم يغير حقيقة عبوديته.

وهذا هو المعيار الذي تقدمه السورة لكل حركةٍ تحمل رسالة: لا تُقاس حقيقة الانتصار بمقدار ما اتسعت السلطة وحدها، بل بمقدار ما اتسع العدل، ولا بكثرة من دخلوا في الصف، بل بصدق ما دخل في قلوبهم، ولا بارتفاع أصوات المدح، بل بقدرة القادة على سماع النصيح، ولا بهزيمة الخصم فحسب، بل بهزيمة نوازع الطغيان في نفس المنتصر. فإسهل أن تقاوم طاغيةً وهو أمامك، وما أصعب أن تقاوم بذرة الطاغية وهي تنمو في داخلك بعد أن تمتلك القوة.

وتخاطب السورة الفرد كذلك؛ فكل نجاحٍ شخصي هو صورة مصغرة من الفتح: علمٌ حصلته، وكتابٌ أتممته، ومكانةٌ بلغت، ومحنةٌ تجاوزتها، وباب رزقٍ فتح لك. والسؤال القرآني ليس: ماذا حققت فقط؟ بل: ماذا فعل الإنجاز بقلبك؟ هل جعلك أكثر شكرًا أم أشد زهوًا؟ هل رأيت فيه فضل الله أم شهادةً على استغنائك؟ هل ازدادت قربًا من الناس ورحمةً بضعفهم، أم جعلت نجاحك منصةً للنظر إليهم من علٍ؟

حين يكمل الكاتب كتابه، والعالم بحثه، والمصلح مشروعه، لا ينبغي أن تكون آخر جملة في وجدانه: لقد صنعت، بل: الحمد لله الذي أعان وفتح، وأستغفره مما شاب العمل من قصور. هذه الروح لا تلغي الثقة ولا تقتل الفرح، بل تنقي الفرح من الغرور، وتضع الثقة في موضعها الصحيح، فيفرح

الإنسان بالنعمة من غير أن يؤلِّه نفسه، ويعتز بالإنجاز من غير أن ينسى
الواهب.

الخلاصة

حين يكون آخر النصر سجدةً وأول الرحيل

استغفاراً

تبدأ سورة النصر بحركةٍ قادمة من السماء إلى الأرض: ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾، وتنتهي بحركةٍ صاعدة من قلب العبد إلى ربه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾. بين الحركتين يقع الفتح، وتدخل الأفواج، وتكتمل الرسالة؛ لكن الحقيقة التي تبقى فوق المشهد كله أن الأمر لله من قبل ومن بعد، وأن العبد مهما عظمت مهمته لا يخرج عن مقام العبودية، بل يزداد تحققاً به كلما اقترب من تمامها.

لقد اختصرت السورة سيرة الدعوة كلها: وعدٌ يسبق التحقق، وصبرٌ يمهد للنصر، وفتحٌ يزيل الحواجز، وناسٌ يدخلون في دين الله، ورسولٌ لا يقف أمام الثمرة ليمجد ذاته، بل يعود إلى ربه تسبيحاً وحمداً واستغفاراً. وفي هذا الاختصار من الجلال ما يجعل السورة أشبه بخاتمٍ وُضع على الرسالة بعد اكتمالها، يحمل في نقشه سر الطريق كله: من الله البداية، وبالله المسير، وإلى الله النهاية.

وحين نقرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ينبغي ألا نقرأها بوصفها خبراً مضى وانتهى، بل ميزاناً خالداً لكل نصر؛ وحين نقرأ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ينبغي أن ندرك أن الناس لله، وأن الدين لله، وأن الداعية ليس إلا أميناً على الطريق؛ وحين نقرأ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ ينبغي أن نفتش في أعماقنا عن بقايا الذات التي تريد أن تزاحم الحقيقة، فنطهرها بالتسبيح، ونلينها بالحمد، ونردها إلى مقامها بالاستغفار.

وهكذا لا تنتهي سورة النصر بصورة جيشٍ منتصر، ولا بمدينة مفتوحة، ولا بأفواجٍ متكاثرة، وإنما تنتهي بعيدٍ واقفٍ بين يدي ربه؛ لأن كل انتصارٍ لا يقود إلى هذه الوقفة يظل ناقصاً، وكل فتحٍ لا يفتح القلب لله قد يتحول إلى حجاب، وكل نجاحٍ لا يزيد صاحبه تواضعاً قد يكون هزيمةً مؤجلةً.

إن أعظم لحظات الإنسان ليست حين يقف فوق القمة والناس ينظرون إليه، بل حين يعرف على القمة كيف ينظر هو إلى الله؛ فيرى الفضل كله منه، والنعمة كلها بيده، ويرى نفسه عبداً مرَّ عبره قدرٌ جميل، ثم لا يجد أصدق من أن يقول بقلبه ولسانه:

سبحانك يا ربنا وبمحمدك، ما كان النصر إلا نصرك، ولا كان الفتح إلا فتحك، ولا اهتدت القلوب إلا بنورك، فاعفر لنا قصورنا في الطريق،

واحفظنا من فتنة الوصول، واجعل آخر أعمالنا حمداً، وآخر أعمارنا توبةً، وآخر
خطواتنا رجوعاً إليك؛ إنك كنت تواباً.